# اسبانيا قبل الفتح الإسلامى

اسبانيـا تكاد أن تكون هى والبرتغال جزيرة فى جنوب أوروبـا الغربى والعرب يسمونها جزيرة الاندلس، فى شمالها الشرقى فرنسا مفصولة عنها بسلسلة من جبال البرانس PYRENES أو جبـال البرت أو البرتات أو جـبال الأبواب[١] وفى جنوبها مراكش يفـصلها عنهـا مجاز جـبل طارق وفى غربها البـحر المـحيط وفى شرقـها البحر الرومى أو بحر سفيد المعروف بالبحر المتوسط.

أوائل سكانهـا قوم يعـرفون بالايبيـريين IBERES ولذا كـان يطلق عليـهـا اسم ايبيـريا IBERIE وقيـل: إن هذا الاسـم مأخـوذ من اسـم نهر فيها كان يسـمى ايبير IBER وهو ابره EBRE الآن.

ثم اهتدى إليها تجار الفنيقـيين قبل المسيح بعدة قرون[٢] حين ملاحتهم على

(١) فى دائرة المعارف «البرانـس جبال تفصل فرنسا عن اسبـانيا» وفى الجزء الأول من نفح الطيب ص ٦٦ المطبوع فى المطبعة الميرية «فى الـحاجز الذى يفصل بين الاندلس والأرض الكبيرة جبل البرت وفيه الأبواب التى فتحـها ملك اليونانيين بالحديد والنار والخل ولم يكن للاندلس من الأرض الكبيرة قبل ذلك طريق فى البر» وفيه ص ٦٧ «بين البحر المحيط والبحر المتوسط البـر الذى يعرف بالأبواب وهو المـدخل إلى بلاد الاندلس من الأرض الكبيرة ومـسافتـه بين البحرين مسير يومين» اهـ.

ولفظة (برت) أفرنجية معناها الباب عربت وجـمعت على (برتات) جاء فى نزهة المشتاق فى الجزء الأول من الإقليم الخامس «يمتد ما بين البحـر المظلم وهو بحر الانقليشبن وبحر الشام جبل عظيم يمتد من مـدينة بيونة إلى أرض برشـلونة يسمى جـبل البرتات ويحجـز بين بلاد الاندلس وبلاد الافرنجيين وطول هذا الجبل من الشمال إلى الجنوب مع سير تقويس سبعة أيام وفيه أربعـة أبواب احدها فى ناحية برشـلونه ويسمى برت جاقة وثانيـها يسمى اشمـرة وثالثها برت شازرو ورابعها برت بيونة ويتصل بكل برت منها مدينة فى الجهتين فما يلى برت شازرو مدينـة بنبلونة» وقد وهم من سـمى هذه الجبـال بالبرن أو البـرنات بالنون بعد الراء وأمـا لفظ «برانس» فيقرب من اللفظ الأسبانى.

(٢) قبل خمسة عشر قرنا وقيل اثنا عشر وقيل عشرة قرون وقيل سبعة.

شواطئ أفريقية ووصولهم إلى المجاز الفاصل بين القارتين فدخلوها وراقهم جمال أقليمها وشاهدوا خصب أرضها وغنى معادنها فكانوا يترددون إليها ويقدمون للايبيريين عروض تجارتهم قليلة القيمة ولكنها جميلة الصنع كأوان زجاجية وأقمشة منقوشة وملابس موشاة وحلى للنساء ويبيعونها بمعادن الذهب والفضة والحجارة الكريمة والانبذة والاصواف أى بأنفس ثمرات البلاد، ولهذا الغرض اقاموا فى أرضها مدائن ذات أسواق تجارية وأنشأوا على شواطئها نزلات بحرية كنزلة قادس CADIX وكانوا يعيشون مع قبائلها على صفاء ووداد لا سيما من لهم شأن فى توسيع تجارتهم.

وقد سرت فى أهل ايبيريا حضارة الفنيقيين وفنونهم ولغتهم وأخلاقهم وكذا عبادة معبودهم هرقول ولذا كان يطلق على جبل طارق وجبل سبته عمودا هرقول LES DEUX COLONNESD'HERCULE وكان القدماء يعتبرون أنهما الحد الغربى للأرض بأسرها.

ومن عصرهم غلب إطلاق اسم (اسبانيا) على (ايبيريا).

قال رومى المؤرخ ما تعريبه بتصرف:

«تضاربت الأقوال فى اشتقاق هذا الاسم والذى يغلب على الظن منها أنه مأخوذ من لفظة (اسبان SPAN) الفنيقى ومعناه المحتجب أو المستور فإن هذه البلاد كانت بعيدة عن الفنيقيين ومحتجبة عن انظارهم فى نهاية الأرض جهة الغرب وقيل سموها بذلك لأنهم رأوا فيها الأرانب كثيرة والأرنب بلغتهم (اسبان) أيضا واختار الرومان ذلك فإن وسام (أدريان ADRIEN) الامبراطور الرومانى (من سنة ١١٧م إلى سنة ١٣٨م) صورت فيه اسبانيا بصورة امرأة بجانبها أرنب واليونان سموها (هسبيريا HESPERIA) أى بلاد الغرب بالنسبة إلى بلادهم فإن لفظ (هسبيرا HESPERA) معناه باليونانية المساء أو الغرب».

وقال فى موضع آخر: «كانت حكومة الفنيقيين فى اسبانيا جمهورية ومستعمرة

قادس الزاهرة حاضرتهم لكنها لم تكن كرسى حكومة مركزية لها سلطة مطلقة على المستعمرات الأخرى البحرية بل كان يربط بعضها ببعض الاتحاد فى الأصل والاشتراك فى المنافع وكانوا من بين الأمم السالفة يرجعون فى منازعاتهم إلى المناقشات التى تؤدى بهم إلى مصالحات عادلة دون استعمال السلاح ولم ينزعوا قط إلى الحكم الملكى على سكان اسبانيا».

لم تدم للفنيقيين الأثرة بالتجارة مع قبائل اسبانيا بل زاحمهم فيها اليونان[١] فتركوا لهم الشاطئ الشرقى منها.

وفى القرن الخامس قبل الميلاد جاء القرطاجيون[٢] واحتلوا نزلات الفنيقين وانشأوا نزلات جديدة منها برشلونه وقرطاجنة[٣] CARTAGENE BARCELONE.

ثم حكمتها الرومان سنة ١٣٤ق م وبقيت تحت حكمهم إلى سنة ٤٠٦ بعد الميلاد حيث أغار على رومة ثم اسبانيا قبائل مختلفة بربرية جاءت من شمال أوروبا منهم السواف أو السوافيون SUEVES والفندال أو الفنادله VAN-DALES.

ثم أدرك السوافيين والفنادلة القوط (أو الغوط أو الغوثيون) GOTHES ويقال لقوط اسبانيا الويزيقوط VISIGOTHES أى قوط الغرب فدفعوا السواف إلى الشمال والفندال إلى الجنوب فأخذ من اسمهم اسم فنداليسيا VANDALICIA للجهة التى احتلوها فحرفه الاسبانيون إلى اندالوشيا وعرّبه العرب بالاندلس ثم دفعوهم إلى أفريقية وأسس القوط فى أسبانيا دولة عظيمة قاعدتها طليطله TO-LEDE ووضعوا لها نظامات وقوانين جديدة وأجابوا الدعوة إلى النصرانية سنة ٥٨١م.

هذا والحروب الأهلية بين امرائها مهدت السبيل إلى استيلاء المسلمين عليها

(١) المراد يونان آسيا لا يونان أوروبا فإن هؤلاء لم يكن لهم مستعمرات فى اسبانيا.
(٢) نسبة إلى قرطاجة وهى مدينة فى شمال أفريقية أسسها الفنيقيون فى القرن السابع قبل الميلاد.
(٣) فى شرق اسبانيا على البحر الأبيض المتوسط ومعناها قرطاجة الجديدة.

فى القـرن الثامن للـميـلاد سنة ٩٢ للهـجرة وكـان آخر ملك مـن ملوكهم يسـمى ردريك ومؤرخو العرب يسمـونه رذريق أو لذريق، قتل فى واقعة شريش XERÉS سنة ٧١١م وبعد هذه الواقـعة التجـأت شرذمة من القـوط تحت قيادة الامـير بلاى PELAGE إلى ولاية اسـتوريا ASTURIE نحو الشمـال وتحصنت هناك من غارات العرب عليهم، قال ابن خلدون: «كان هذا القطر الاندلسى من العدوة الشمالية من عدوتـى البحر الـرومى وبالجانب الغـربى منها يسـمى عند العجـم (غير الـعرب) الاندلوش وتسكنه أمم من افرنجة المغرب أشدهم وأكبرهم الجلالقة وكان القوط قد تملكوه وغلبوا على أهـله لمئين من السنين قبل الإسلام بعـد حروب كانت لهم مع اللطينيين حاصروا فيها رومة ثم عقدوا معهم السلم على أن ينصرف القوط إلى الاندلس فصاروا إليها وملكوها ولما أخـذ الروم واللطينيون بملة النصرانية حملوا مَنْ وراءهم بالمغرب من أمم الفـرنجة والقوط عليها فدانوا بهـا وكان ملوك القوط ينزلون طُلَيْطُلَه وربما تنقلوا ما بينها وبين قرطبة واشـبيلية ومارده وأقاموا كذلك من نحو أربعمائة سنة إلى أن جاء الله بالإسلام والفتح وكان ملكهم لذلك العهد يسمى لذريق وهو سمة لملوكهم كما أن جرجير سمة لملوك صقلية». اهـ.

بمقارنة عبارة ابن خلدون هذه بما سبق يؤخذ أن المراد بالجلالقة الأقوام التى كانت تسكن شمـال اسبانيا وأن اللطينيين هم الرومـان وأن الروم هم اليونان وقوله: إن لذريق سمة لملوكهم وهم فإنه علم شخص على آخر ملوكهم.